

البحث العلمي في العلوم الطبيعية في ضوء المقاصد الشرعية

إعداد

أ.د علي الطاهر شرف الدين

* مدير معهد السودان للعلوم الطبيعية، أستاذ الطبيعيات بجامعة الخرطوم، عضو
ومقرر دائرة العلوم الطبيعية التطبيقية بمجمع الفقه الاسلامي بالسودان، رئيس
لجنة العلوم الاساسية بوزارة التعليم العالي والبحث العلمي السودانية، رئيس
دائرة تأصيل المعرفة بجامعة القرآن الكريم والعلوم الاسلامية، رئيس دائرة العلوم
الكونية بالمركز العالمي لابحاث الايمان بالخرطوم

مقدمة :

في هذه الدراسة نناقش موضوع البحث العلمي إزاء تلبية مقاصد الشريعة الإسلامية، ولكن نقصر مناقشة ذلك في مجال العلوم الطبيعية وما ينتج عنه من تطبيقات ذات مردود على حياة الناس وسلامة البيئة التي تحيط بهم. أما بالنسبة للعلوم الانسانية فإن مردود البحوث ومدى استجابتها للمقاصد الشرعية قد وجد قدراً من الدراسة والتوظيف العملي خلافاً لما عليه آثار التطبيق لمباحث العلوم الطبيعية على المجتمع الانساني والبيئة. وذلك بسبب التسارع المطرد في هذه التطبيقات وما تسببه على الحياة البشرية من تغير ونحور وتطور قد يتواءم ويحقق مقاصد الشرع من ناحية، أو يتناقض ويتعارض مع هذه المقاصد من ناحية أخرى، فيعيق تحقيقها.

وهنا قبل النظر في ما يمكن أن تشتمل عليه بحوث العلم الطبيعي في ضوء المقاصد الشرعية يجب ابتداءً أن نعرف معنى البحث العلمي ومفهوم العلوم الطبيعية ومن ثم وضعه في إطار يلي هذه المقاصد.

وكلمة "بحث" من حيث أصلها اللغوي - كما يستفاد مما ورد في لسان العرب لابن منظور - تعني طلب الشيء بالخفر لاستكشافه في التراب كما يفهم من مدلول ذلك في قوله تعالى: { فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِثُ سَوْعَةَ أَخِيهِ... } [المائدة: ٣٦]. ولكن الذي يهمنا هنا المعنى الاصطلاحي المقصود في هذه الدراسة.

لذلك فإننا نعني بالبحث العلمي - بصفة عامة - ما يبذل من جهد بإعمال العقل لاستكشاف حقائق وفق منهج سليم ، لبلوغ نتائج يمكن تكييفها وتطبيقها وتوظيفها لتلبية هدف ما.

ونعني بالعلوم الطبيعية ، جملة المعارف المختصة بدراسة ظواهر الكون والبيئة والحياة، وما يطرأ عن هذه الظواهر من تغيرات، وما يعتمل فيها من تفاعلات، والكشف عن القوانين التي تصف هذه التغيرات وتحكم هذه التفاعلات. ودراسة هذه العلوم والبحث في مجالاتها، يأخذان أهمية كبرى لما لهما من تطبيقات ذات أثر على الانسان في تطوير حياته وتيسير وسائلها، ولما ينطوي على حُسن توظيفها من تقدم وثناء للبشرية كافة.

لهذا كان البحث العلمي في مجال العلوم الطبيعية موضع اهتمام الأمم الساعية لبلوغ غايات الرفعة والمنعة والازدهار. إلا أن نتائج الأبحاث يمكن أن يساء استخدامها في ما يعود على الانسان بالضرر والمخاطر. من أجل ذلك لزم أن تؤسس البحوث على قاعدة من المبادئ السليمة، وأن تلي أهدافاً قويمه، بوسائل نبيلة. وهذا يعني وضع البحث العلمي في إطار رؤية تستجيب لمقاصد الشرع الإسلامي. وهذا ما يتضمنه موضوع هذا البحث.

رؤية تأصيلية مقاصدية :

عندما نتناول قضايا البحث العلمي بالمناقشة هناك أسئلة ضرورية يجب طرحها . هل الباحث حرٌ في ما يبحث فيه ؟ وما معنى حرية البحث العلمي ؟ وما أبعادها ؟ وهل ثمة أهداف تحكم البحوث وتقيد وسائلها ؟

إجابتنا على هذه الأسئلة يمكن أن تأتي من خلال مناقشتنا قضية تأصيل البحث العلمي في مجال العلوم الطبيعية بأسباب مقاصد الشرع عليه وبتوجيهه لما يستوجب التعامل الراعي إزاء الآثار الأخلاقية والقانونية لنتائج البحوث العلمية والتطبيقات التقنية لهذه العلوم. لكن بدءً يلزم أن نحدد الإطار النظري الذي يحسن أن نتناول فيه هذه القضية.

في هذا الإطار يجب - ابتداءً - أن تتجلى لنا حقيقة أن الله قد خلق الوجود بما يشتمل عليه من الغيب المستور والكون المنظور، وصاغه على أساس من الحكمة

والرشد في التدبير؛ وأنه تعالى أودع في هذا الكون سنناً تتسم بالروعة وحسن التقدير؛ وأنه أحكم الطبيعة في هذا الكون بنظام ينم عن دقة في التسيير؛ وأنه أضفى على الطبيعة - بما يعتمل فيها من ظواهر الحياة - نسقاً من التوافق والتيسير.

ومن خلال هذا المنظور الشامل المتكامل للوجود بشقيه الغيبي والمشهود والذي يتأكد في أصله معني الأحدية، وينتظم بناؤه على نسق من الزوجية، يأخذ الانسان موقعاً مرموقاً بما أسبغ الله عليه من الفضل، وبما حبله من نعمة العقل، ليستجيب للطبيعة من حوله منفعلاً بما ينجم فيها من أحداث، متفاعلاً مع ما يعتمل فيها من ظواهر، فاعلاً في استنباط طاقاتها، فعلاً في توظيف هذه الطاقات لتعمير الحياة بالخير والنماء. بهذا يكون الانسان مجبولاً على إعمال الفكر مستبصراً في سنن الكون، متبصراً ناموس الخلق، متدبراً ملكوت الله، مستقيماً على هداياه.

هذا التبصر الواعي لناموس الخلق، والتدبر الداعي لمعرفة ملكوت الله، والتفكير الساعي لسبر أغوار الكون وكشف أسرار الطبيعة وفك رموزها، هو ما نطلق عليه مباحث العلم الطبيعي. وهذا ما جُبلت عليه الفطرة البشرية وما حث عليه الله في رسالته الخاتمة لبني الانسان. وما أكثر الآيات في كتاب الله التي تدعو إلى التفكير والتدبر والنظر في السنن التي أودعها الخالق في نظام الكون.

في هذا التصور يصير البحث في العلوم الطبيعية وتطبيقاتها مجالاً للعبادة تتناغم فيه الفطرة الانسانية السوية مع الإيقاعات الكونية في انسجام رائع بديع.

البحث العلمي في مجال العلم الطبيعي يتسع كلما اتسعت مدارك الانسان منطلقة من محيطه المحدود إلى عالم بلا حدود بدءاً بما يلينا من كائنات، ونزولاً إلى عالم الدقائق وما دون الذرات، وصعوداً إلى ما وراء السُدُم والمجرات. ومع ذلك فالعلم الطبيعي بطبعه قاصر بقصور مدارك العقل البشري ومحدودية وسائله وتقيدته بالعالم الحسوس. ولكن هذا القصور في طبيعة العلم الطبيعي لا ينتقص من غزونه ولا يقدر في مضمونه. فهو لذلك أبداً متطور ما تطورت قدرات العقل البشري في استقصاء أبعاد

الكون واستكشاف خبايا الطبيعة واستنباط قوانينها وتوظيف طاقاتها لتيسير سبل الحياة لمزيد من الترقى في سُلّمها كلما تطورت وسائل المعرفة وتوسعت مجالات البحث عن حقائقها.

من خلال هذا التصور تتسع دائرة العلم الطبيعي والبحث فيه وتعمق دلالاته ويتأسس منهجه على مبادئ رشيقة، وترتبط رسالته بأهداف رفيعة، مقرونة بوسائل نبيلة موصولة بقيم الفضيلة. وترسخ أصوله على رؤى قويمه تستند على نظرة شاملة موحدة للكون مستصعبة سنة التطور، مستوعبة قضايا الحياة، معبرة عن هوية الأمة عابرة بها نحو مطالعها في التقدم والازدهار.

بهذا تتجلى المزاوجة الوثيقة بين معنى التدبر والنظر في آيات الله المنزلات، والتفكر والبحث في آياته الكونية. وهذا ما نعينه ونرمي إليه من تأطير مباحث العلم الطبيعي وترشيدها لتلبي أسمى غايات الحياة.

في هذا الإطار يوضع البحث العلمي في نسقه القويم المستجيب لمقاصد الشرع حيث تتحد رسالة الوحي المنقول مع رسالة العلم المعقول في توافق بديع وتواؤم رائع بين ما يمكن أن يستكشفه الانسان بإعمال العقل في القوانين الطبيعية، وما يستلهمه من هداية في كتاب الله مُجري هذه القوانين.

ومن أهم وجوه التأطير أن يكون البحث العلمي من حيث أهدافه ووسائله ونتائجه محكوماً بهذه المقاصد وما يندرج تحتها من مبادئ وفضائل وقيم وأخلاقيات وبما ينطوي على ذلك من نبل في الغاية وصدق وهداية.

مقاصد الشرع وأخلاقيات البحث العلمي:

العلم المؤسس على تقوى الله لا تُفضي وسائله ولا نتائجه إلى ما يخل بالمثل أو يعارضها، بل تنسجم وتتوافق معه هذه المثل. والعلم النافع إنما يوظف من أجل تعمير الحياة بالنماء والازدهار بدلاً للخير واستجابة لمقاصد الشرع. أما وظيفة العلوم وما يتصل بها من مناشط بحثية وما تُفضي إليه من نتائج إذا خرجت عن مكارم

الأخلاق والفضائل فإنها - لا ريب - تنقلب وبالأعلى على الإنسانية. والمعنى الأخلاقي في مجال البحث العلمي لا يقتصر على مجرد جلب الخير للناس بل يجب أن يشمل كذلك درء الضرر عنهم ووقايتهم من المخاطر. بل إن درء الضرر والتصدي لما يمكن أن يصيب الناس من شرور أجدد بأن يكون موضع اهتمام الباحثين. وعموماً فإن نتائج البحث العلمي قد تفضي إلى خير وإثم أو شر وإفناء.

لقد كان اكتشاف الطاقة النووية - مثلاً - نقلة علمية عظيمة في تسخير قوى الطبيعة لخدمة الإنسان، إلا أن إساءة استخدام هذه الطاقة الهائلة وتوظيفها لأغراض التدمير الشامل الذي يقضي على الحرث والنسل ويلوث البيئة بالإشعاعات الضارة يمثل خروجاً سافراً عن قيم الفضيلة وتغلياً للفساد الذي كشف القرآن الكريم عن أبعاده وأسبابه بقوله تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم: ٤١].

لذلك فإن المخطأ أخلاق الناس يفسد حياتهم كما يفسد جمال الطبيعة من حولهم ويخل بنظامها البهيح. هكذا فإن من الناس من يسعى في الأرض فساداً {وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد} [البقرة: ٢٠٥]. إن العالم الباحث المؤمن بالله يتلازم عنده عمق المعرفة مع حسن الخلق، ولا يستقيم لديه العلم مع السفه والفساد. فهو يدرك بعقله المتبصر أن محاولة الخروج عن النسق الأخلاقي مدمرٌ مثلما هو مدمر الخروج عن الناموس الكوني، وأن خير نتائج العلم وأبحاثه ما يدرء الضرر عن الإنسان ويبيح حاجاته في الحياة.

البحث العلمي وحاجات الإنسان:

لا بد أن يكون للبحث هدفٌ سام، وأن توظف نتائجه من أجل تعمير الحياة الإنسانية بالنماء والازدهار استجابة لمقاصد الشرع وبذلاً للخير. والبحث العلمي الرشيد هو الذي يلي حاجة الإنسان ويستوعب مشاكله وينهض بحلها في إطار البيئة التي تحيط به والواقع الذي يعيشه. وأن يواكب ما يجري في هذه البيئة من تطورات،

وما يطرأ على الواقع من تغيرات. بل وأن يدفع بهذا الواقع نحو الأفضل. وهذه المواكبة الواعية لسنة التطور هو ما نسميه التحديث. ويجب أن يفهم في هذا السياق أن التحديث يعني النهوض بالبحث وما يترتب عليه من مناشط علمية نحو الرقي دون الإخلال بالمقاصد الشرعية. وذلك وفقاً لفطرة التطور وسنة التغير في البيئة والحياة.

موجهات لترشيد البحث العلمي:

كما ذكرنا آنفاً فإن البحث العلمي يعني ما يبذل من جهود عقلية في سبيل الوصول إلى حقائق علمية وبلوغ نتائجها واستيعاب دلالاتها واستقصاء أبعادها وتوظيف نتائجها من خلال منهج سليم. لذلك يجب أن يقوم على أساس من الأصالة وأن يكون محكوماً بمجمل من الضوابط من حيث أهدافه ووسائله ومنهجه وأساسه ومضامينه، نوجز بعضها في الموجهات التالية:

- (١) أن يُنظر إلى البحث العلمي بحسبانه عبادة واستجابة لما حث عليه الله من التدبر في ناموس الوجود والتفكر في خلق الكون والتبصر في سنن الحياة وقوانين الطبيعة.
- (٢) أن تؤسس البحوث العلمية على مبادئ لا تتعارض مع حقائق مستمدة مما كشف عنه الوحي أو مستنبطة مما اكتُشف من قوانين الكون.
- (٣) أن تكون نتائج البحث العلمي مفيدة وقابلة للتطبيق والتفسير.
- (٤) والألّا يُفرضي هذا التفسير إلى فهم يتنافى مع ثوابت العقيدة وحقائق العلم المقطوع بصحتها.

- (٥) ألاّ توظف نتائج البحث أو أي من تطبيقاته ووسائله في ممارسة أو سلوك يصطدم بقيم الفضيلة أو يفسد البيئة أو يتنافى مع مقاصد الشرع فيما يفيد الإنسان.
- إن البحث العلمي في ظل هذه الموجهات إنما يلبي أهداف العبادة ويتأصل على الحقائق القرآنية والكونية، ويتجنب مزالق الضلال والعبث والانحراف وينتأ

بالإنسان من كل علم لا ينفع يستعاذ بالله من شره. وما هذه الضوابط والموجهات إلا لترشيد البحث العلمي وتجنبيه ما قد يعتريه من مثالب.

وخلاصة هذا أن ما لمجره من بحوث يجب أن يفضي إلى فهم سنة الله التي فطر عليها الكون، وأن يُستهدى في ذلك بما أخبر به الوحي. ومن خلال هذا الفهم يجب أن توظف نتائج هذه البحوث لتحقيق مقاصد نبيلة. فهناك مجالات شتى حث الله على النظر فيها، يجب أن توجه لها جهود الباحثين في سبيل ترقية الحياة الإنسانية والنهوض بها وإصلاحها.

إن البحث العلمي الذي لا يلتزم بضوابط مستمدة من مفهوم الإصلاح، فلا تحاط مناشطه بسيلج من المبادئ الدينية والقيم الأخلاقية، لا شك مفض إلى إفساد في الحياة وفي الطبيعة ولا تؤدي نتائجها إلى إصلاح { ... إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ } [يونس: ٨١]. فلا زالت كارثة هيروشيما الذرية ماثلة في الذاكرة تشهد على فساد الأخلاق. وهنالك أمثلة كثيرة لسوء توظيف العلم الذي يجلب الدمار ويودي بحياة الناس ويهدد أمنهم. نذكر منها الإشعاعات الضارة المتولدة عن التفجيرات النووية، والأسلحة الجرثومية والكيميائية، وتزوير الوثائق والعملات، والألغام التي تفتك بالأفراد وتغتالهم من تحتهم، والتي استعاذ رسول الله ﷺ منها نبوءة عن حدوثها في زماننا هذا إذ لم يكن هذا النوع من الاغتيال معروفاً يومئذ.

لقد بلغ البحث العلمي في مجال العلوم الطبيعية شأواً عظيماً من التقدم، كما أحدث التطور التقني الهائل - مثلاً - في مجال الاتصالات الحديثة وشبكات المعلومات تحولاً عظيماً لخير الإنسان، إذ به يتحقق التواصل والتقارب بين الأفراد والجماعات البشرية. إلا أن الانحراف عن الجادة في الاستفادة من هذا الإنجاز الرائع، يصير مجلبة للفساد ومنفذاً لإشاعة الفاحشة في المجتمعات وتهديداً لقيمها الأخلاقية. لذا سيظل التحدي قائماً أمام العلماء الباحثين المؤمنين حتى يكونوا قادرين على حماية منجزاتهم العلمية من أن يساء استخدامها في غير ما هدف نبيل.

ولقد يساء توظيف البحث العلمي في بعض مجالات الهندسة الوراثية أو التقنية الأحيائية، في ما يطلق عليه مصطلح " الاستنساخ " الذي صار من الضروري أن تُحكم أهداف البحوث فيه بقيم الدين والفضيلة حتى لا يقع الباحثون في دائرة الضلال فيمنهم الشيطان ويأمرهم بتغيير خلق الله { ... وَلأْمُرُهُمْ فَلْيَغْيِرُوا خَلْقَ اللَّهِ ... } [النساء: ١١٩].

وثمة مناشط بحثية أخرى تخفي في ثناياها الكثير من أوجه الفساد التي تفتق عنها العقل البشري في معزل عن الدين والأخلاق. مثل هذه البحوث غالباً ما لا تجرى من أجل أغراض إنسانية ولكن بدعوى حرية البحث العلمي. وحرية البحث العلمي يجب ألا تتجاوز حداً يؤدي إلى الضرر بالإنسان ومحيطه الأحيائي.

ومن هذا يمكن الخلوص إلى أن ترشيد البحث العلمي، يعني توجيهه للإصلاح، وتقويمه على قيم الفضيلة، وتوظيف نتائجه لخير الإنسان. والبحث العلمي الذي ينمو ويزدهر في جو من الإيمان بالله وتقواه مبارك ومفض إلى إصلاح حل الإنسانية. وإن العلم والتقوى متلازمان { ... كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ... } [فاطر: ٢٨] ، فلا بد أن ينضبط البحث العلمي بمعايير التقوى ويستجيب لمقاصد الشرع.

البحث العلمي في ضوء مقاصد الشرع :

نوجز تناولنا لمقاصد الشرع على المقاصد الضرورية في وجوهها الأساسية المتمثلة في حفظ النفس وحفظ الدين وحفظ العقل وحفظ النسل وحفظ المال . ونحن هنا لسنا بصدد مناقشة وجهات النظر الفقهية ازاء تأسيس هذه المقاصد على المصلحة وتقسيماتها الرئيسية والفرعية ومباحثها وما تشتمل عليه هذه المباحث من دلالات . فالذي يهمنا هنا مدى تلبية البحث العلمي لهذه المقاصد وتحقيقها. وذلك من حيث مبادئه وأهدافه ووسائله ونتائجه . ويجدر ان نشير هنا الى أن علماء الاصول وضعوا حفظ الدين من أول مقاصد الشرع الضرورية بحسبه مصدرا للعلم بهذه المقاصد كلها ، ولكن يبدو من الممكن تقديم حفظ النفس على بقية المقاصد بحسب ان عدم حفظها يجعل حفظ الدين وحفظ العقل والنسل والمال غير ذي معنى لنفس غير

محفوظة. والان لكي نناقش مدى استجابة البحث العلمي في مجال العلوم الطبيعية التطبيقية للمقاصد الشرعية سنتناول كل مقصد على حدة مبينين ضرورة هذه الاستجابة لكل مقصد على النحو التالي:-

أولاً: حفظ النفس:

هذا المقصد محوره الانسان، نفس الانسان. والشرعية الاسلامية منهاج حياة الانسان. وبحوث العلم الطبيعي يجب ان توظف تطبيقاتها لمصلحة هذا الانسان درء للشرعته، والحفاظة علي حياته ولترقيتها، وتيسير سبلها جلبا للخير له. ودرء الشر عن نفس الانسان وحفظها يشمل كل نفس بما يعني حفظ المجتمع الانساني كله، بل يمتد ليشمل كل نفس حية، مع ما لبني آدم من التكريم والفضل، { ولقد كرمنا بني آدم ومحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم علي كثير من خلقنا تفضيلا } [الاسراء: ٧٠].

هذا التصور لمقصد حفظ النفس الذي يتضمن حفظ كل النفوس البشرية التي يتكون منها المجتمع ، يتسع كذلك ليشمل البيئة الاحيائية الطبيعية التي تحيط بالنفس الانسانية .لذا فإن حفظ المجتمع وحفظ البيئة انما يندرجان تحت مقصد حفظ النفس بل ويتكاملان معه. ذلك لان نفس الانسان وحياته انما تمثل جزءاً من الكيان الاجتماعي والمحيط البيئي وانها لا تنعزل عنهما. ويجب هنا أن ندرك أن هذه الحياة رهينة بما يتوافر من طاقة في البيئة المحيطة.

بهذا يجب ان يلي البحث العلمي الطبيعي مقصد حفظ النفس في ما يلي:-

- (أ) توظيف ما يستنبط من الطاقة لتوفير الأمن والأمان ولتطوير وسائل الحياة وتيسير سبلها في كسب العيش وإعمارها بالخير والنماء.
- (ب) تقييد هذه الطاقة ومجالات البحث فيها بحيث لايساء استخدامها لاهلاك الحرث والنسل وتدمير الحياة وابادة البشر واشاعة الرعب في النفوس وانعدام الامن.

- (ج) تطوير البحث في استنباط طاقات نظيفة ومتجددة حفظا لسلامة الانسان وصحته ودعما للتلوث البيئي الذي يضر بالحياة .
- (د) تطوير الابحاث في اجل الصحي والطبي وقاية من الاوبئة الفتاكة وتوفيرا للعلاج الناجع من الامراض المختلفة واصحاحا للبيئة وحماية للفرد والمجتمع .
- ويمكن اجمال ذلك في الجهود المبذولة أو التي ينبغي ان تبذل في البحوث الرامية إلى تعزيز العلاج الطبي من الامراض القاتلة مثل السرطان وفقدان المناعة وغيرها واستحداث عقاقير فاعلة او بتقنيات العلاج بالمورثات (الجينات) ، واستخدام الاشعة في التشخيص او العلاج ومن هذه الاشعاع المُحفَّز (الليزر). ويجب أن يعنى بتطوير البحث في مجال الطب البديل التراثي والشعبي . أما في مجال الوقاية يلزم ترقية البحث في إستحداث الامصال واللقاحات الواقية من الامراض والاوبئة وفي الكشف عن الاغذية المحورة وراثيا او المغشوشة الضارة بالصحة ، وكذلك في الكشف عن الجرائم التي تهدد حياة الانسان والمخاطر الناجمة من التلوث البيئي الاشعاعي والكيميائي ومخاطر الاسلحة الفتاكة بأنواعها المختلفة واسلحة الدمار الشامل والمتفجرات والالغام وغير ذلك . ويجب ان توظف بحوث العلم الطبيعي في التوعية الصحية في ما يتعلق بالوقاية وترشيد استخدام الادوية وتوفير الامن والسلامة ومحاربة العادات الضارة بحياة الانسان، وكذلك الممارسات الضارة بالصحة مثل التدخين. كما يجب التوعية العلمية بضرورة ترشيد التعامل مع البيئة والحفاظ على نظامها الطبيعي وعلى التنوع الاحيائي والحميات الطبيعية. ويلزم الاهتمام بالابحاث الخاصة بالكوارث الطبيعية كالزلازل والبراكين والفيضانات والاعاصير، وعموما تقلبات المناخ وما يحدث من كوارث ملغمة تودي بالحياة. ومن تلك الابحاث ما يجد اهتماما عالميا مثل الاحتباس الحراري والتعقيم الجوي العالمي وما يعرف بثقب الأوزون.

من هذه البحوث ما ينتج عنه عدد من القضايا التي تستدعي اجتهدا جماعيا في تحقيق المقصد الشرعي من حفظ النفس نذكر منها: التعريف الاحيائي للنفس، تعريف الموت ازاء ما يعرف بالموت الدماغي، القتل "الرحيم"، الاجهاض، التجريب الطبي في جسد الانسان، نقل الدم، قطع الغيار البشرية، وعموما نتائج تطبيقات الهندسة الوراثية الى آخر ما يمكن أن تتفتق عنه هذه البحوث من اكتشافات.

ثانيا : حفظ الدين :

يتأسس دين الاسلام على الايمان بالله تعالى وبالقُرآن ورسالته الخاتمة لبني الانسان، وبتصديق النبي محمد مبلّغ هذه الرسالة بما تتضمنه من حقائق عن الغيب المستور وعن الكون المنظور، ومن موجّهات في العبادات والمعاملات والسلوك. هذا مع ما يستلزم ذلك ابتداءً من الاعتقاد بتوحيده عز وجل وربوبيته للعالمين ولاهيته للعابدين وانه تعالى خالق كل شيء ومدبر امره {... الا له الخلق والامر...} [الاعراف: ٥٤].

والعلم المؤصل على حقيقة أن الله خالق الوجود ومُجري سننه الكونية ومحكم قوانينه الطبيعية إنما يندرج تحت المعرفة القرآنية. لذلك فان العلم الطبيعي جدير بان توظف مباحثه لحماية العقيدة الدينية وحفظها بالوجوه التالية :-

(أ) ترسيخ عقيدة التوحيد وتوكيد حقيقة الخلق وحفظ الدين من دعاوى الشرك والالحاد وتنقية المعرفة الدينية مما قد يخالطها من رؤى منحرفة.

(ب) الكشف عن حقائق الكون في القرآن وحقائق القرآن في الكون، وبيان إعجاز كلام الله والمزاوجة بين آياته في هذا الكتاب الحكيم وآياته في الأفق والانفس.

(ج) التزام البحث العلمي بقيم الفضيلة ومكارم الاخلاق بما يتسق مع ما دعى إليه الدين من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وحث على الحلال وتحريم للحرام.

(د) توظيف العلم الطبيعي في تيسير أداء الشعائر الدينية وضبط مواعيتها وإحكام حياة الناس وفق سنته تعالى الماضية في نظامه الكوني.

(هـ) جعل البحث في العلوم الطبيعية ضرباً من التبعّد لله من حيث أنه يقود إلى التفكير في خلقه تعالى والتدبر في ملكوته، ومن حيث إمكان توظيفه للدرء الضرر وجلب الخير للإنسان.

وهذه الوجوه في مجملها تفضي لحفظ الدين بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ولحمايته من أن يحال بينه وبين معتنقيه.

أبحاث العلم الطبيعي التي ترمي إلى حفظ الدين يمكن أن نذكر منها ما يتعلق بالكشف عن ما هو محرم في المأكّل والمشرب والاستعمال مثل اللحوم والدهون المحرمة، والمصنوعات والأطعمة التي يشوبها دهن الخنزير، والخمور وغيرها. وكذلك الكشف عن الجرائم الجنائية وتلك التي تمس قيم العدل والصدق والأمانة وصيانة الأعراض والشرف والأخلاق. وهذه البحوث تؤدي إلى تطوير وسائل وأجهزة للكشف والمراقبة تساعد في درء مخاطر التجسس والتنصت والمفاسد التي يمكن أن تفرزها وسائل الاتصال الحديثة. وذلك من أجل تفادي مثالب هذه الوسائط وحسن توظيفها وترشيدها.

ثالثاً: حفظ العقل:

العقل من آلاء الله على الإنسان. والتأثير عليه للاخلال بوظيفته التي فُطر عليها يتعارض مع مقصد الشرع الإسلامي. والعلم الطبيعي إنما يهدف إلى الوصول إلى الحقائق الكونية وتفسيرها بالعقل وتوكيدها بالاختبار والتجريب والمراقبة. وما يكشف عنه العقل هو تعبير عن ما ترقبه الحواس ويفقهه القلب. فالعقل أداة العلم ويفقده تفقد النفس قدرها ويفقد الدين معناه لدى هذه النفس.

وبحوث العلم الطبيعي يلزم أن تحقق مقصد الشرع في حفظ العقل بما يأتي:

أ. بسط المعرفة وتوضيح الحقائق العلمية بصورة محسوسة حماية للعقل من التلوث الثقافي المنطلق من رؤى ومفاهيم زائفة أو منحرفة غير رشيدة وحفظاً لها من التفضيل والتشويش عن طريق الدجل والشعوذة والسحر والكهانة او عن طريق الخطأ واللبس في فهم هذه الحقائق أو طمسها.

ب. ترشيد استخدام العقاقير الطبية حماية للعقل ودرءاً لمخاطر المنشطات والمخدرات وكل ما يخل بتوازنه الطبيعي.

ج. تطوير الابحاث في مجال الصحة العقلية والنفسية تحصيناً للجهاز العصبي لدى الانسان من المؤثرات الضارة.

د. إتباع توجيهات القرآن والسنة فيما يتعلق بالطب النفسي والعقلي للانسان في إطار ما يعرف بالحكمة الشعبية والطب البديل، وتطوير البحث فيه.

هـ. رفع كفاية العقل البشري وتوظيف قدراته وتنشيطه بالبحث وإعمال الفكر لترقية أدائه وتيسير عمله.

رابعاً: حفظ النسل:

التكاثر سنة من سنن الله الماضية وفطرة جُبلت عليها الأحياء بشتى أنواعها لحفظها وإستمرارها. وتتكاثر هذه الانواع - ومنها الجنس البشري - عن طريق التناسل. وقد كرم الله بني الانسان إذ خلقهم من ذكر وأنثى وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا ويتزاوجوا ويتناسلوا فتتعاقب أجيالهم. بهذا كان حفظ النسل فطرة ربانية وسنة إلهية أودعها الله في طبيعة الأحياء ونظام الحيلة. وقد أحكم الخالق هذا النظام في المجتمع الانساني بأن جعل الاسرة وحدة أساسية في بنائه. وأحاطها بمهمة من الشرائع تضبط سلوك أفرادها وعلاقاتهم، خاصة فيما يربط بين الذكور والاناث وفي كل علاقات المجتمع البشري. والبحث العلمي في مجال العلوم الطبيعية يجب أن تتواءم أهدافه مع مقصد حفظ النسل، في ضرورة التقيد الصارم بما يمليه الشرع الاسلامي من أخلاقيات وما يحظره من ممارسات في الآتي:

(أ) الاستناخ وأبحاث التقنية الاحيائية والهندسة الوراثية من تخليق للخلايا الجذعية البشرية وما يعنيه ذلك من الغاء للتناسل الطبيعي وما يترتب على هذا من قضايا قانونية واخلاقية و إجتماعية.

(ب) ابحاث البصمة الوراثية واعتماد الحامض النووي DNA وسيلة للاثبات القضائي، وعلاقة ذلك بقضايا النسب واللقطاء والمواريث وحرمة الأعراض وما يستتبع ذلك من الانصراف عن الطرق الشرعية المنصوص عنها في القران في حسم بعض القضايا مثلا كالملاعة في تهمة الزنا بين الزوجين.

(ج) الابحاث المتعلقة باستئجار الرحم أو ما يعرف بالانجاب المساعد والخزانات المنوية وما يؤدي ذلك إلى إختلاط الانساب والفوضى الجنسية.

(د) ما يتعلق بمنع الحمل وما يطلق عليه تنظيم النسل بموانع مختلفة وباستخدام العقاقير وما يستتبع ذلك من آثار سلبية على عملية التناسل الطبيعي بالإضافة إلى ما يفرزه هذا الوضع من انعكاسات ضارة بصحة المرأة وحياتها ومهددة سلامة الاسرة والمجتمع.

(هـ) تطوير ابحاث عن طريق العلاج بالمورثات وغيره ، للحد من تفاقم الفوضى الجنسية والشذوذ الجنسي والانحرافات التي تتعارض مع مجريات الفطرة.

خامسا: حفظ المال:

المال هو عبارة عن قدر طاقة استنفذها الانسان وجهد بذله لحماية نفسه وكسب عيشه وتيسير حياته. وهذا الجهد المبذول وما ينتج عنه من كسب هو حق لمكتسبه محفوظ بشريعة الاسلام من أي اعتداء عليه. والمال ملك لصاحبه يتصرف فيه وفق مقتضى هذه الشريعة. وإعمال البحث العلمي في مجال الطاقة هو استثمار يحفظ المال وينميه ويحقق مقصد حفظه للأفراد والمجتمع كله. وهذا يمكن تحقيقه بالاتي :

(أ) إعمال البحث في مجال تطوير انتاج الطاقة والاقتصاد في استخدامها للاغراض المختلفة، وحسن استغلالها وترشيدها باستثمار الجهد والزمن بطريقة فاعلة وناجزة لتقليل التكلفة.

(ب) البحث لرفع الكفاية الإنتاجية وتجويد الاداء وترقية الإنتاج وجعله وفيرا .
(ج) ابتكار وسائل لاعادة استخدام النفايات والمخلفات وتدويرها للاستفادة منها
(د) تطوير الوسائل العلمية لكشف الجرائم المالية مثل تزيف العملة والوثائق وغيرها .
(هـ) توظيف بحوث العلم الطبيعي والرياضيات من إحصاء وحوسبة إلكترونية في التخطيط الاقتصادي ودراسات الجدوى وحسابات الزكوات والموارث وفي إدارة المال عموماً بطريقة حديثة، ولكي تنأى به عن الحرام من ربا ومقامرة وإحتكار وكل ما من شأنه أن يمحى المال ويبعد الثروة لدى الفرد والجماعة. والتعاملات المالية الحديثة في إطار التجارة العالمية والعولة الاقتصادية تستلزم بناء كفاءات مؤهلة ومنتجة وعلى معرفة عالية بالحوسبة والبرمجة العلمية والتقنيات المتقدمة فيما يعرف بالتجارة الالكترونية. هنا يجدر أن نشير إلى أن النماذج والنظم التقنية المصرفية كلها نتيجة لتطبيقات بحوث متطورة في العلوم الطبيعية.

خاتمة:

في هذه الدراسة البحثية التي تبرز أهمية العلوم الطبيعية في حيلة الإنسان وفي محيطه البيئي تتجلى الصلة بين أهداف هذه العلوم ومقاصد الشريعة الإسلامية. ومرد هذا إلى كون العلم الطبيعي تعبيراً عن مجرى سنن الله تعالى الدالة على إحكام خلقه، وأن الشريعة منهج قويم يُعبر عن أحكام أمره. لذلك فإنّ البحوث في مجال هذه العلوم المنضبطة بمقاصد الشرع إنما تمثل ضرباً من العبادة لله، وأن تطبيق نتائج هذه البحوث تحقيق لهذه المقاصد وتأصيل لاهدافها الموصولة بالحياة الإنسانية. من خلال هذه الدراسة التأصيلية فإن المقاصد الكلية للشريعة - فيما يتعلق بتطبيقات البحوث

في مجال العلوم الطبيعية - تتسع لتشمل حفظ البيئة والمجتمع وكل الكيان الإنساني ومقوماته الحيوية.

إن التطور المطرد في تطبيقات العلوم الطبيعية وما يتبعها من تقنيات حديثة ربما ينطوي على نتائج سلبية بل وضارة في بعض وجوها. من أجل هذا فإن القضايا الناشئة عن ذلك يجب أن تعالج في إطار المزاوجة الواعية بين درء الضرر وجلب الخير من ناحية، وتطوير البحث للكشف عن سنن الله في الطبيعة وتوظيف طاقاتها لترقية الحياة من ناحية أخرى.

وهذا يعني أن تتكامل جهود العلماء المختصين في كل من العلوم الشرعية والطبيعية في تناول هذه القضايا المتجلدة بإجتهد فقهي قويم وتكييفها بما يلبي مقاصد الشريعة الإسلامية.

مراجع وبحوث للمؤلف تكمل موضوع البحث:

- (١) مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، العدد الثالث، محرم ١٤١٨هـ حول الخصائص القرآنية في مجال العلوم الكونية، جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، أم درمان - السودان.
- (٢) مجلة التأصيل، العدد السادس، يناير ١٩٩٨م، تأصيل المعرفة أسسه وأهدافه، إدارة تأصيل المعرفة، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، الخرطوم - السودان.
- (٣) مجلة أبحاث الإيمان، أخلاقيات البحث العلمي، العدد ١١، يناير ٢٠٠٠م، الخرطوم السودان.
- (٤) مجلة مجمع الفقه الإسلامي، البحث العلمي في العلوم الطبيعية التطبيقية وآفاقه المستقبلية في السودان، بين ضرورة التأصيل وتحديات العولمة، العدد الثاني، السنة الثانية، ١٤٢٣هـ الخرطوم - السودان.
- (٥) أوراق مؤتمر: "الإسلام والمنهج العلمي" العلوم الطبيعية بين ضرورة التأصيل وتحديات العولمة، اتحاد الجامعات الإسلامية، رجب ١٤٢٤هـ - سبتمبر ٢٠٠٣م، جاكارتا - اندونيسيا.
- (٦) مجلة التعليم العالي والبحث العلمي، تأصيل العلوم الطبيعية بين مستلزمات النهضة وتحديات العولمة، العدد الثالث، ٢٠٠٤م، الخرطوم - السودان.

مراجع إضافية

- (٧) أصول الفقه الاسلامي، وهبة الزحيلي، دار الفكر - دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.
- (٨) المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، أ.د يوسف العالم، المعهد العالي للفكر الإسلامي - الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.

- (٩) فقه المقاصد الأستاذ الدكتور عبد الله الزبير عبد الرحمن - جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية - أم درمان - السودان - ١٤٢٥هـ
- (١٠) مدخل إلى مقاصد الشريعة، أحمد الريسوني، المكتبة السلفية، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.
- (١١) الحلال والحرام في الإسلام للشيخ يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة ١٣٩٧هـ
- (١٢) الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، يوسف القرضاوي، دار القلم - الكويت.
- (١٣) أعمال المؤتمر العلمي الأول - تحت شعار: الاجتهاد الجماعي، مجمع الفقه الاسلامي - السودان - الخرطوم ١٤٢٦هـ